الترك والمجتمعات التركية

عند الكتاب العرب وغيرهم

الدكتور سعد زغلول عبد الحميد

كان أول اتصال للمسلمين ببلاد الترك أثناء فتحهم للأمبراطورية الساسانية . فبعد انهزام الجيالة الفارسية وقيتها بالقادسية (سنة ١٥ = ٦٣٧) وبعد الانتصار الفاصل فى نهاوند (سنة ٢٢ = ٦٤٢) تحقق للعرب سقوط فارس . وفى نفس هذا الوقت وصل العرب الى جبال أرمينيا كما استولوا فى الجنوب على مضايق لورستان ثم انتشروا فى آذربيجان وولاية فارس . وظل يزدجرد الثالث ينسحب أمامهم الى أن مات سنة (٣٢ = ٦٥١) بمدينة مرو على حدود بلاد الترك [١] . فعن طريق فارس اذن تعرف العرب على الترك ، ولن يلبثوا أن يعبروا اجيحون ويخاطروا فى ثغور الشمال فى ما وراء النهر وبلاد الترك . وسيأخذ صراعهم مع الترك شكل حلقة جديدة فى حلقات النزاع بين الايرانيين والطورانيين .

ويرى معظم الكتاب العرب ، أن نهر جيحون يكون الحد الفاصل بين ايران والتركستان (أى بلاد الترك) ، وهذا ما أخذ به كثير من الباحثين [٢] . ولكن بعض المؤرخين المحدثين يرون أن هذا التحديد مضلل ، وان الشاهنامة — أى ملحمة الصراع بين ايران وطوران — هى السبب فى هذا التحديد الخاطىء ، اذ أن نهر سيحون هو الحد الحقيقى بين التركستان وايران [٣] ؛

---

(١) أنظر الطبرى ، ج ٥ ص ٧١ — ٧٤ ؛ ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٧ ؛ البلاذرى ، فتوح البلدان ، طبعة مصر ١٩٠٠ ، ص ٣٢٣

(٢) أنظر Barthold, Turkestan down to the Mongol invasion, pp. 64, 65

(٣) أنظر Gibb, Arab Conquests in Central Asia, p. 1 . وهذا ما يقرره فعلا بعض الكتاب المتأخرين من العرب مثل ياقوت الذى يقول إن حد بلاد الترك من جهة المسلمين هى مدينة فاراب (وهى المدينة التى عرفت باسم أترار والتى كانت عاصمة ترك الأغز) أنظر معجم البلدان ، طبعة مصر ١٩٠٦ ، ج ٢ ص ٣٧٨ .

وان جيحون لم يكن الا حدا سياسيا فقط منذ القرن السادس الميلادي[1] ؛ بل أن هذا الحد انتقل في ذلك الوقت نحو الغرب الى نهر المرغاب ، اذ أن يزدجرد مات في مرو على حدود الترك . معنى ذلك أن بلاد الترك تبدأ من التخوم الشرقية لخراسان وهذا حقيقي في بداية القرن السابع .

ولكن العرب عند ما التقوا بالترك لأول مرة لم يكن اللقاء في هذه الجهات بل في منطقة القوقاز في ارمينيا وما وراء آذربيجان عند ما يسميه العرب «بالباب» أو «باب الأبواب» من ولاية شروان وأرّان[2]. حدث هذا على عهد عمر . فالرواية تقول إن عبد الرحمن بن ربيعة لما خرج بالناس سنة ٢٢=٧٤٢ يريد غزو بنجر والترك قال له الأمير الوطني شهربراز : « انا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب . ولكن عبد الرحمن أمعن حتى بلغت خيله البيضاء على رأس مائتي فرسخ من بنجر»[3]. وفي سنة ٣٢ — أي قبل أن يصل المسلمون الى مرو — ثار عبد الرحمن من جديد في ثمرات ارمينيا فتذامر عليه الترك وقتلوه[4]. وعلى ذلك فالترك كما عرفهم العرب لم يكونوا في شرق خراسان وفي شمالها الشرقي فقط بل ووجدوا كذلك في شمالها الغربي ما بين بحر قزوين والبحر الأسود . وهؤلاء الأخيرون هم الذين يعرفهم الكتاب باسم ترك الخزر أي ترك قزوين والبحر الأسود[5]. والحقيقة أن آذربيجان وولايات شمال

(١) أنظر Gibb: Arab Conquests in Central Asia, p. 3 .

(٢) أنظر المسعودي ، مروج الذهب ، طبعة مصر ١٣٤٦ ، ج ١ ص ١٠٩ — ١١٠ ؛ القلقشندي ، طبعة القاهرة ١٩١٤ ، ج ٣ ص ٢٤٩ ؛ Le Strange: Lands of the Eastern Caliphate, p. 180

(٣) ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٤ (الذي ينقله ابن خلدون ، العبر ، طبعة فاس ، ج ٢ ص ٣٥٦) .

(٤) أنظر الطبري ، ج ٥ ص ٧٨ ؛ ابن الأثير ، ج ٣ ص ٦٤ ؛ وقارن البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢١١ .

(٥) الطبري ، ج ٥ ص ٧٨ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٠٩ ؛ البلاذري ، ص ٢٠٢ ؛ القلقشندي ، ج ١ ص ٣٦٧ (يقول أن الخزر هم الأتراك وهم نوع من الترك) ؛ النويري ، نهاية الأرب ، ج ١ ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

غرب ايران وممراتها التي تسمى بالدربندات أو الأبواب كانت دائما طريقا للغزوات الآتية من سهوب روسيا الجنوبية . لذلك أقامت إيران هناك حصونا ما زالت آثارها باقية حتى الآن[1]. ومثل هذا حدث بالنسبة لشرق خراسان اذ لما كانت منطقة جرجان ممرا للغزاة الآتين من سهوب آسيا الوسطى ، بنى الايرانيون هناك حائطا لصدهم طوله عدة أميال[2].

يتبين من ذلك أن الكتاب العرب لهم العذر عند ما يطلقون كلمة الترك على سكان المنطقتين المعرضتين دائما لغزوات أهل السهوب ، سواء كانوا تركا أو خليطا من الترك وغيرهم ، أو من سكان البلاد الأصليين في بعض الأحيان . ولهذا اتسع مدلول كلمة الترك عند المسلمين ، كما اتسعت مواطنهم فتخطت سهوب أواسط آسيا . وشملت البلاد المتاخمة والتي كانت بينها وبين الترك علاقات قديمة تراوحت ما بين العنف والسلم .

وأعطى الكتاب العرب للترك نسبا مطابقا لفكرتهم الاسلامية في تقسيم الشعوب فقالوا انهم من ابناء يافث بن نوح[3] وخصص بعضهم فقال ان «الترك» ينسبون الى ترك حفيد يافث[4] ؛ وعلى هذا المنوال نسب الخزر أيضا الى الخزر بن يافث[5]؛ وادخلوا ضمنهم شعوبا تركية وغير تركية فمن ضمن الترك يذكرون : القبشاق (الخفشاج) والغز والطغزغز والتتر (وهم الطغزغز عند ابن خلدون) ، والقارلوق (الخرلخية) والخطا والخياطلة (أهل الصغد) والطخارية (أهل طخارستان)[6].

(١) أنظر البلاذري ؛ ص ٢٠٣ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١١٠ و ١٦٣ ؛ R. Ghirshman, Iran (coll. Pelican), p. 25 .

(٢) أنظر الطبري ، ج ٢ ص ٩٢ ؛ R. Ghirshman: Iran, p. 25 .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٧٩ ؛ الطبري ، ج ١ ص ١٠٦ .

(٤) أنظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ص ٣٦٦ .

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٤٣٢ .

(٦) أنظر القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ص ٣٦٦ .

ويذكرون ضمن ترك الخزر : الديلم والجيل (سكان عراق العجم) ، وأهل جبل القبخ (القوقاز) من الكريم (القرم) ، واللان (Alains) والأرمن والتركمان والبلغر[1]. ثم هم بعد ذلك يضيفون الصين الى الترك ، والروس الى ترك الخزر [2].

والحقيقة أن التفرقة بين الترك والخزر تتفق مع النتائج التى وصل اليها الباحثون . فرغم التشابه العام بين جماعات البدو من سكان سهوب قزوين والبحر الأسود وبين سكان سهوب آسيا الوسطى فيما يتعلق بنوع الحياة والعادات والتقاليد ، وجد الباحثون لاسيما الأثريين اختلافات كبيرة بين الجماعتين . ففى العصر التاريخى الأول كانت تسكن مناطق ترك الخزر جماعات بدوية ايرانية أى من العنصر الهندو اوروبى عرفوا منهم السقطيين (Scythes) ثم السرمطيين (Sarmates) الذين ظلوا فى حالة بداوة على عكس اخوانهم الميديين (Mèdes) والفرس الذين استقروا جنوبا فى الهضبة الايرانية . ويقول الأثريون إن هؤلاء الهندو أوروبيين اندفعوا شرقا حتى أواسط وحوض تاريم حيث نشروا لغتهم فى هذه المناطق وحيث أثروا على جماعات الترك والمغول أى قبل أن تصبح الحركة عكسية ويأتى البدو من الترك المغول وينشرون لغاتهم فى أطراف ايران الشمالية الشرقية والشمالية الغربية ويكونون مواطن تركية جديدة فى العالم الايرانى وروسيا والمجر .

وبينما كانت السهوب الغربية أماكن مستقر جماعات ايرانية الأصل ، كانت السهوب الشرقية واقعة تحت سلطان شعوب تركية مغولية سماها الصينيون باسم « هيونج — نو » (Hioung-nou) بمعنى العبيد العصاة [3]، وهو اسم قريب من « الهون » (Huns) أو الهونى (Hunni) والهونا (Hüna) الذى أطلقه الرومان واليونود على هؤلاء البرابرة فيما بعد[4]. بسبب هؤلاء الخيالة غير الصينيون فنهم العسكرى

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٧٩ .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٧٩ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١ ص ٣٦٦ — ٣٦٧ .

(٣) Cahun: Introduction à l'Historie de l'Asie Centrale. p. 87

(٤) أنظر L. Halphen, les Barbares. p. 11; Grousset. l'Empire des Steppes. p. 53

فاستعملوا فرق الخيالة السريعة بدل العربات الثقيلة كما غيروا ملابسهم فلبسوا السروال بدل الرداء . وبسببهم أيضا أنشأوا سور الصين العظيم لصدهم . وظل هؤلاء البرابرة يقلقون الامبراطورية الصينية حتى القرن الخامس للميلاد[1] .

ولما أحس الهيونج – نو بقوتهم توسعوا على حساب شعب بدوى مثلهم يعرف باليو – تشي (yue-tche) ، وتحت الضغط ، رحل اليو – تشي غربا (فى القرن الثانى ق.م.) الى حوض الإلى وشواطىء سيحون العليا فى فرغانة ومنها دخلوا منطقة بلخ . هؤلاء المهاجرون هم الذين عرفوا باسم الطخارية . ويقول الباحثون انهم شعب هندو أوروبى ، ولكن المؤرخين الصينيين يعارضون هذه النظرية ، ولا يقبلون وجود الهندو اوروبيين فى هذه الأماكن الأمامية[2] .

واستمر الصراع بين الهيونج – نو والصين ، وانتقل الى منطقة تارم – وهى طريق الحرير – ولكن الصين تمكنت من القضاء عليهم فى الغرب وأخضعتهم فى الشرق فاصبحوا حماة الثغور الشمالية فى نظير الاقطاعات والألقاب الصينية[3] وهذا هو نفس تاريخ كثير من الشعوب الجرمانية على الحدود الرومانية . وهو ما سيحدث فى الاسلام : فبعد أن أسلم الترك الغربيون سيراهم فى بغداد يحملون الأسماء العربية الى جانب اسمائهم التركية ويستعملون القوة فى طلب العطاء والاقطاعات .

ولكن عندما ضعفت الصين فى أوائل القرن الثالث الميلادى أصبحت أشبه ما تكون بمنطقة ضغط خفيف كما يقول جروسيه . فجذبت اليها البرابرة الذين تمكنوا من إقامة أسر بربرية فى الصين حتى منتصف القرن الخامس . من بين هؤلاء استقرت جماعات من الترك سماهم الصينيون – To - pa ، تمكنوا من توحيد الصين الشمالية جميعا ، وعرفت امبراطوريتهم باسم تبغاتش بالتركية وهى طمغاج بالعربية[4] كما عرفت باليونانية باسم « تنجست » (Tangast)[5] .

(١) أنظر Grousset. l'Empire des Steppes p. 63 .

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٣ و ٦٤ وهامش ٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٦ – ٧٧ .

(٤) ابن الأثير ، ج ١٢ ص ١٩٦ ؛ النسوى ، سيرة منكبرتى ، طبعة مصر ، ص ٣٩ .

(٥) Grousset. l'Empire des Steppes. p. 103–105

والى جانب طمغاج وجد فى التركستان الغربى قبائل تركية مغولية عرفها الفرس والعرب باسم الحياطلة ، والصينيون باسم « يه - تاى » (Ye - tai) كما عرفها البيزنطيون باسم Hephtalites وكذلك بالهون البيض [1] .

انتشر سلطان الحياطلة فى النصف الثانى من القرن الخامس بعد أن انفصلوا عن امبراطورية «الجوان جوان» فى منغوليا . فشمل حوض الالى وسهوب تشو ومنطقة طراز واقليم سيحون حتى الآرال كما احتلوا ما وراء النهر ، ثم منطقة بلخ أو طخارستان ، وقتلوا الملك الساسانى فيروز أو بيروزبن يزدجرد بمرو سنة ٤٨٤ م.[2] كما احتلوا هراة . ويعرف الكتاب العرب والفرس الزعيم الحياطلى الذى انتصر على الملك الساسانى باسم اخشنوار[3] وربما كانت تحريفا للقب الصغدى خشوان أى ملك [4] . وتظرا لمقاومة فارس اضطر الحياطلة الى الاتجاه نحو الجنوب الشرقى حيث الطخارية واحتلوا كابل واندفعوا نحو غزو الهند[5] .

وغير هاتين الامبراطوريتين : امبراطورية الجوان جوان ، التى اتخذ ملكها لقب خاقان لأول مرة ، وامبراطورية الحياطلة ، وجدت جوال منتصف القرن السادس للميلاد امبراطورية التوكيو (Tou-kioue) الذين أعطوا اسمهم وهو « الترك » الى كل الشعوب التى تتكلم لغتهم . وكلمة توكيو هى الاسم الصينى الذى يمثل صيغة جمع مغولية هى تركوت (türküt) ومفردها ترك (türk) ومعناها القوى أوالشديد البأس[6] . كانت مساكن التوكيو فى منطقة التاى ، وخضعوا أول الأمر للجوان جوان ثم تحالف أميرهم بومين (Boumin) الذى عرفه

(١) Grousset, l'Empire des Steppes, p. 110, note 3

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٦٤ ؛ الطبرى ، ج ٢ ص ٨٢ وتابع .

(٣) الطبرى ، ج ٢ ص ٨٣ - ٨٥ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٦٤ (يسميه " بخصران ") .

(٤) Grousset, l'Empire des Steppes, p. 111, note 2 .

(٥) نفس المصدر ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٦) ألفى Chavannes, Documents sur les Tou-kioue p. 47 ؛ دائرة المعارف الاسلامية ، مقال " ترك " ؛ Grousset, l'Empire des Steppes, p. 126 et note 1 .

الصينيون باسم تو – من (T'ou-men) مع تبغاش (طمغاج) الصيني ضد الخوان جوان وهزمهم . وبعد أن تغلب بومين على الخوان جوان اتخذ لنفسه اللقب الذي كان يطلق على زعيم الخوان جوان وهو لقب خاقان . وقد كان أمراء التوكيو يعرفون من قبل بلقب جابغو أو يابغو الذي استعمله الكتاب العرب والذي يقابله في الصينية تاتشي هوو ta-che—hou[1] . وبعد موت بومين انقسمت مملكة الترك بين ابنه « موهان » الذي حمل لقب خاقان واخذ منغوليا وبين أخيه استامي Istami (أو بالصينية Che—tie—mi والذي يعرفه الطبري باسم سنجبوا والمؤرخ البيزنطي مينائدر Ménandre باسم Silziboul أو Dizaboul وهي تحريف للقب يابغو[2]) ، والذي أخذ اقاليم الارتيش والاميل والالى وتشو وطراز . وترتب على ذلك انقسام الترك الى شرقيين وغربيين .

جاور زعيم الترك الغربيين شعب الهياطلة واصطدم بهم وتحالف مع الساسانيين اعداءهم على عهد كسرى انو شروان وتمكن الترك الغربيون من تحطيم الهياطلة (حوالى سنة ٥٦٥) . واخذ يابغو الترك بلاد الصغد فيما وراء النهر واستعادت فارس منطقة بلخ الا أن الترك لم يلبثوا أن أخذوها منهم[3] . أما بقايا الهياطلة في الشمال الغربي فاتجهوا نحو الغرب واستقروا في المحر حيث عرفوا باسم الآفار . ثم ساءت العلاقات بين استامي وانو شروان فتحالف الملك التركي مع الامبراطور البيزنطي ، وعرف البيزنطيون الترك باسم «تركوى» (Tourkoi) وغزا الترك طخارستان سنة ٥٩٨ – ٥٩٩ وتوغلوا حتى هراة وبوشنج[4] كما هاجم البيزنطيون فارس من الغرب[5] . ومع أن البطل الفارسي بهرام جور – بطل الشاهنامه – تمكن من ردهم الا انهم انتهزوا النزاع بين كسرى ابرويز الثاني وبين بهرام الذي التجأ اليهم[6] فأتموا فتح طخارستان .

(١) أنظر : Chavannes, Documents sur les Tou-kioue, p. 47 ; Grousset, l'Empire de Steppes, p. 126

(٢) أنظر الطبري ، ج ٢ ص ٩٢ ؛ Cahun, Introduction à l'histoire de l'Asie, p. 114 : Grousset, l'Empire des Steppes, p. 128 et note 2

(٣) أنظر الطبري ، ج ٢ ص ٩٢ .

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٦٨ . Cahun, Introduction à l'hist de Asie, p. 45

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٦٩ .

(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٧١ ؛ وأنظر Grousset, l'Empire des Steppes, p. 129

وقد نتج عن انقسام الترك الى شرقيين وغربيين أن تمكنت الصين من التدخل في شئونهم ، ونجحت في القضاء على الشرقيين كما أصبحت حامية لخانات الترك الغربيين ، وذلك في أوائل القرن السابع للميلاد .

مما سبق يتضح أن كلمة « الترك » صينية الأصل وأنها كانت حديثة عند ما عرف العرب مكان منشأ آسيا الوسطى لأول مرة . كما يتبين أن الصين كانت أكثر الدول احتكاكا بهم ولذلك فان أقدم المصادر التي تكلمت عنهم هي المصادر الصينية .

ووصف الصينيين لهم ولعاداتهم وتقاليدهم ينطبق على وصف الرومان لمرابرة آسيا الذين غزوا الامبراطورية بعد منتصف القرن الرابع للميلاد كما يتفق مع وصف العرب والمسلمين للترك والمغول الذين عرفوهم فيما بعد. وقد وصف الصينيون قبائل الهيونج — نو بأنهم أصحاب قامة قصيرة وجسم ربعة ورأس مدور ضخم ووجه عريض وخدود بارزة وأنف أفطس ولحية قليلة الشعر ، وأذنين طويلتين بهما حلقات للزينة والرأس حليق في العادة سوى خصلة من الشعر في وسطها ؛ أما الحاجبان فكثيفان والعينان مفتوحتان كالفوزة والحدقة حادة جدا [1] . ومثل هذه الصفات وصف الكتاب اللاتين هون اتيلا (Attila) اذ يقول اميان مارسلان (Ammien Marcellin) انهم يلذبون خدود ابنائهم حتى لا تنبت لحاهم ، ويصف أجسامهم بأنها ربعة والاعضاء العليا منها ضخمة والرأس كبير عظيم . ثم يقول انهم لا يعرفون الطبخ أو الطهي بل يأكلون جذور النباتات البرية واللحم الموضوع تحت سروجهم ؛ وهم لا يقاتلون مشاة انما يركبون جيادهم الصغيرة السريعة التي لا تتعب . فهم ملتصقون بها ؛ وخطتهم في القتال هي الهجوم والانسحاب ثم العودة الى الهجوم ؛ وهم يرمون بالسهام من مسافات بعيدة وبدقة ، لا يشابههم في ذلك أحد[2] .

(1) Grousset, l'Empire des Steppes, p. 55 ; Gaibn, Introduction à l'Hist de l'Asie, p. 37

(٢) أنظر L. Halphen, Les Barbares, p. 29- 31 .

ومثل هذه الصفات وصف الكتاب العرب الترك بعد أن نسبوهم الى يافث بن نوح — كما سبقت الاشارة — فالطبرى بعد أن يضم اليهم فى هذا النسب الصقالبة ويأجوج ومأجوج (أى أهل التبت والصين) يقول ان « ولد يافث كل عظيم الوجه صغير العينين » ، ويضيف الى ذلك انه « ليس فى واحد منهم خير »[1] . أما المسعودى ، فانه بفضل دراساته الواسعة المتنوعة ، يربط بين البيئة ومميزات هذه الجماعات الجسمانية ، وينسبها الى تأثير بلادهم اذ يقول « . . . ان تأثير كل بقعة فى الناس من النباتات وفيما ليس بنام كتأثير أرض الترك فى وجوههم وصغر أعينهم ، حتى أثر ذلك فى جاطم ، فقصرت قوائمها وغلظت رقابها وأبيض وبرها » ، ثم يضيف مثل الطبرى : « وأرض يأجوج ومأجوج فى صورهم »[2] .

وهذا هو نفس الوصف الذى وصف به الكتاب المتأخرون الترك ، وذلك بعد أن دخلوا الاسلام و تحكموا فى مصائره وفرضوا وصايتهم على الخلافة ، حتى أصبحت الدولة تركية . ولكن الكتاب الذين كتبوا عن الترك فى هذا العهد ، رأوا عند كلامهم عن المتغلبين على الدولة أن يكسبوا الموقف صفة شرعية ، فأوردوا أحاديث منسوبة الى النبى — وهى مصطنعة من غير شك — لتأكيد الحالة الراهنة . فياقوت يبدأ كلامه عن بلاد الترك بحديث يقول فيه : « الترك أول من يسلب أمتى ما خولوا »[3] . ثم يتبع ذلك بحديث ينص على صفات الترك الجسمانية فيقول : « لا تقوم الساعة حتى يجىء قوم عراض الوجوه ، صغار الأعين ، فطس الأنوف حتى يرابطوا خيولهم بشاطىء دجلة »[4] .

والتركى الذى عرفه العرب فارس ممتاز بحكم الطبيعة . يصفه الجاحظ بأنه يركب برذونه الذى لا يعرف التعب ، ويضرب بالقوس والسهم من بعيد وفى كل اتجاه : من أمام ومن خلف وعن يمين وعن يسار ،

(١) الطبرى ، ج ١ ص ١٠٦ .

(٢) مروج الذهب ، ج ١ ص ٩٣ .

(٣) معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٧٨ .

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٧٨ .

كل ذلك وهو يجرى بسرعة البرق . فالتركى كما يقول الجاحظ « له أربع أعين : عينان فى وجهه وعينان فى قفاه » . وعلى ذلك إذا أدبر التركى « فهو السهم الناقع والحتف القاضى لأنه يصيب بسهمه وهو مدبر كما يصيب بسهمه وهو مقبل » . كما انه محكم الرمى على كل شىء : من هدف ثابت أو ثعبان زاحف أو حيوان راكض أو جارح منقض من السماء على فريسته . وهو فى ذلك لايجاريه انسان حتى من اولئك الذين عرفوا بالشدة والصلابة من الخوارج أو الخراسانية . فهو الفارس راكب الحصان الذى ولد الى جانبه وشب وترعرع على ظهره وعنيه يعيش . اذ يأكل من لحمه ويشرب من لبنه ولا يغادر ظهره . وهو الحصان الجيل دون منازع : فهو مربيها ومدربها وبيطارها الذى يداويها ثم هو تاجرها[1] .

وعندما عرف الكتاب المسلمون المغول وضعوهم مع قبائل الترك ونسبوهم بطبيعة الحال الى يافث بن نوح [2] ؛ كما قالوا انهم أكثر توحشا اذ يورد النسوى : « انهم المشهورون من قبائل الترك بالشر والغدر »[3] . ويشبه ابن عربشاه جماعات الترك بقبائل العرب [4] ، ويرى أن قبيلة جنكيزخان هى مركز الصدارة بين قبائل الترك ، مثلها مثل قريش بين قبائل العرب « لايقدر أحد أن يتقدم عليهم »[5] .

وينطبق وصف القدامى للترك على مغول القرن الثالث عشر الميلادى أو على المحدثين منهم : فروبروك (Rubruck) يصفهم بأنهم بدو ليست لهم أماكن استقرار من بيوت أو أكواخ ، بل لهم خيام على عربات أشبه بالقرى المتحركة . وهم يحلقون وسط رؤسهم ويتركون ما حولها يضفرونه ضفائر تنحدر على الجانبين . وهم يلبسون الفراء فى الشتاء ، أما فى الصيف فلباسهم الحرير الصينى . وشرب لبن الفرس المخمر المعروف « بالقمز » محبوب لديهم[6] . وحديثا وصفهم هوك (Huc) وجابيه (Gabet)

(١) الجاحظ ، رسالته الى الفتح بن خاقان فى فضائل التركية ، طبعة مصر ١٨٩٨ ص ٢٨ — ٣٤ ، وانظر Sauvaget. Historiens Arabes, p. 7 et suiv.

(٢) عن رشيد الدين ، جامع التواريخ أنظر Howorth. History of the Mongols, 1, p. 34

(٣) سيرة منكبرنى ، طبعة القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٣٩ .

(٤) أخبار تيمور ، طبعة القاهرة ١٢٨٥ ، ص ١٤ .

(٥) أخبار تيمور ، ص ١٤ .

(٦) أنظر Grousset. L'Empire des Steppes, p. 343 .

نفس الوصف التقليدى : فهم أصحاب وجه مفرطح وخدود بارزة العظام وذقن قصيرة وجبهة منخفضة وعيون صغيرة منحرفة وبشرة صفراء وشعر أسود خشن وذقن نادرة الشعر . وهم متوسطو القامة . ولاحظ الرحالتان أنهم يتميزون بقوة حاسة السمع والبصر . أما عن معيشتهم فهم يكرهون حياة الحضر ويحبون اللهب والسلب والقسوة [1] . وأما عن براعتهم فى ركوب الخيل فيقولان : ان المغولى معتاد ركوب الحصان فاذا نزل من على ظهره فهو كالسمكة إذا خرجت من الماء : خطواته ثقيلة وأرجله مقوسة وصدره بارز الى الأمام . ونظراته زائغة فى كل اتجاه ؛ مما يدل على تعود ركوب الخيل أو الجمال[2] .

هذا عن التشابه الجنسى أما عن اللغات واللهجات التى تتكلمها هذه الجماعات فهى أيضا تشابه بعضها البعض مما دعا بعض العلماء الى جعلها عائلة لغوية واحدة متشعبة الى عدد من الفروع . هذه الفروع تختلف أو تقترب من بعضها البعض تبعا لاختلاف المسافات بينها . فأكثرها اختلافا هى الفنلندية والمجرية فى الغرب والمغولية والمنشو فى أقصى الشرق . ولقد قسموا هذه العائلة اللغوية الى أربع مجموعات متمايزة تمتد من الغرب الى الشرق وهى : الفنلندية — الاويجورية والتركية والمغولية والمنشو . والمجموعة الأولى تشمل الفنلندية والمجرية واللهجات الأويجورية المستعملة بين الأورال والفلجا . أما المجموعة التركية فتتكون من ثلاث شعب : الأولى تشمل العثمانلى والأزرى واللهجات الفارسية ؛ والثانية وهى الأهم والاقدم تشمل الاويجورية واللهجات التترية بروسيا وسيبريا والكاشغرية والتركمانية والقبرغزية والألتائية ؛ والثالثة هى لغة الياقوت بفروعها فى الشمال الأقصى . أما المجموعة المغولية فتضاف اليها لهجة الكالموك باستراخان . وأخيرا يضاف الى مجموعة المنشولغة التونجوز وربما أضيفت اليها أيضا اللغة الكورية[3].

(١) أنظر Huc & Gabet, Travels in Tartary 1844—1846, p. 336 337 .

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٨ .

(٣) أنظر Cahun, Introduction à l'Histoire de l'Asie, p. 34-35 .

ومع أن بعض كبار المشتغلين بالدراسة اللغوية لا يقبلون وجود ارتباط أصيل بين اللغات الالتائية (التركية والمغولية والتونجوزية) وبين اللغات الاويجورية المرتكزة على الأورال[1] ، فان التشابه موجود على كل حال سواء كان أصيلا أو حدثا سياسيا تاريخيا مثل مجيء الهيونج — نومن تخوم الصين تحت اسم الهون وتأسيسهم امبراطورية تركية فى روسيا الجنوبية وفى المجر ، أو فرار الآفار المغول تحت ضغط التوكيو واستيلائهم على نفس الأماكن فى القرن السادس ، أو هجرات ترك الخزر فى القرن السابع ، ثم ترك البشناق (Petchineques) فى القرن الحادى عشر ، ثم ترك الكومان (Comans) فى القرن الثانى عشر ، وأخيرا مغول جنكيزخان الذى اتخذوا نفس الطريق الى سهوب المجر .

هذا التشابه اللغوى هو الذى جعل الكتاب القدماء يذكرون أن هذه الشعوب التى سموها بالترك تتكلم لغة واحدة برغم أنهم لم يجهلوا الاختلافات بينها . فياقوت يقرر « ان لسان الخزر غير لسان الترك والفارسية[2] » . ولكنهم رأوا فى هذا الاختلاف اختلاف لهجات فقط كما يقول ابن عربشاه الذى يشبه لغاتهم بلغات قبائل العرب[3] . وكذلك يرى الغازانى ان لغة الترك ولغة المغول واحدة فى الأصل برغم اختلافها[4] . وهذا ما يؤيده اللغويون فى أبحاثهم . فالترك (التوكيو) عندما انقسموا الى غربيين وشماليين ، كانوا يتكلمون نفس اللغة مع اختلاف بسيط[5] . وكذلك الاختلاف بين الأغز والاويجور انما هو اختلاف لهجة فقط[6] . أما لغة الخطا

(١) أنظر Grousset. l'Empire des Steppes. p. 50 .

(٢) معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٣٤ .

(٣) أخبار تيمور ، ص ٥٨ .

(٤) تاريخ الغازانى ، مخطوط دار الكتب رقم ٥٤٢٦ ، ص ١٥ .

(٥) أنظر Chavannes, Documents sur les Tou-kioue occidentaux p. 21.47 .

(٦) أنظر دائرة المعارف الاسلامية مقال " ترك " (ج ٤ ص ٩٤٩) . وقد تحمس الأستاذ فؤاد حسنين الى أن " صدرى مقصودوف " يرى أنه لاتوجد جماعتان تحمل الواحدة منها اسم أغز والأخرى اسم أويجور فالاسم الأخير لم يعرفه الكتاب العرب الأوائل وانما ظهر متأخرا نتيجة لتحريف كلمة أغز الى انقلبت الى أويجور . أنظر Journal Asiatique. 1924. p. 148 .

أو القراخيطاى فهى قريبة من لغة المغول وكذلك من لغة الآفار[1]. والمغول الحنكيز خانيون أنفسهم كانوا يستعملون أساليب ومصطلحات تركية[2] . وكذلك توجد محاولات لاثبات ان لغة الهون هى لغة المغول والتونجوز[3] ؛ مما دعا الى القول بأن موطن الترك الأصلى هو منغوليا أى منطقة بيكال وحوض السلنجا والأورخون . هذا الى جانب أن هناك كثيراً من المصطلحات والكلمات المتداولة بين الجماعات المختلفة وخاصة بين الترك والمغول والتى لا يعرف نسبتها الى أى الجماعتين على وجة التأكيد[4] . والى جانب ذلك توجد الكلمات التى استعملتها الجماعتان معا استعمالا واسع النطاق والتى تعرف بأنها تركية بغير شك مثل تنجرى (Tengri) أى السماء أو الاله الذى عبدوه[5]، وارسلان أى الأسد التى ما زالت تستعمل فى منغوليا[6] ، ثم القاب خان وخاقان وبج[7] ، ثم كلمة بلج (bilig) التركية بمعنى الكتاب التى أطلقت على مجموعة أقوال جنكيزخان[8] . وكذلك نجد أن كلمة أويجور (أو أغز) التى تسمت بها الجماعة المعروفة بهذا الاسم مأخوذة من كلمة أجر (ogor) التركية القديمة والتى تعنى اتحاد جماعات[9].

(١) Pelliot, Journal Asiatique, juin 1920, pp. 146,147 .

(٢) Howorth, History of the Mongols, pp. 3,24 ; Barthold, Turkestan down to the Mongol Invasion, p. 160 .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ، مقال " ترك " ، ج ٤ ص ٩٤٧ .

(٤) مثال ذلك كلمة قرشى بمعنى سراى أو قصر التى غلبت على اسم مدينة خشب (بالفارسية) أو نسف (بالعربية) القديمة ؛ اذ يقال أن الكلمة مغولية ولكن البعض يرى أنها تركية حقيقية . أنظر Barthold; Histoire des Turcs d'Asie Centrale [adaptation française], Paris 1945, p. 139 ; وأنظر Pelliot, Journal Asiatique, 1925, p. 254 (عن الكلمات المغولية التى تتشابه مع التركية) .

(٥) أنظر Vladimirtsov: The Life of Chingis Khan, pp. 65,92 .

(٦) أنظر Huc & Gabet: Travels in Tartary, p. 18 .

(٧) Howorth: History of the Mongols, I, p. 31 ; Vladimirtsov, The Life of Chinges-Khan, p. 3

(٨) Vladimirtsov, The Life of Chingis-Khan, p. 74 .

(٩) Sadry Maksoudoff, Journal Asiatique, 1924, p. 145 .

يتبين من كل هذا أن هذه الجماعات التي تنتشر في طول آسيا وعرضها تتكلم لغة واحدة أو لهجات متقاربة وانها تمسكت بلغتها الأصلية هذه رغم بعد المسافات بينها ورغم عامل الزمن . وهناك أمثلة تدل على تعلق هذه الجماعات بلغاتها الأصلية : فالسلاجقة مثلا رغم دخولهم في الاسلام ظلوا متمسكين بكلامهم وبأسمائهم التركية رغم اتخاذهم الألقاب العربية ، والسلطان برقوق (وأصله من القرم) لم يتكلم الا الشركسية حتى وهو في مصر فكان الترجمان يلازمه دائما[1].

والى جانب التقارب الجنسي والتفاهم اللغوي ، اشتركت هذه الجماعات في العادات والتقاليد كما اشتركت في نوع المعيشة ، اذ هم قوم رعاة ، حياتهم هي حياة البدو . ولما كانت سهوبهم موطنا للخيل فقد اتصفوا بأنهم فرسان يلازمون ظهور الخيل في بحثهم عن الحيوان الشارد أو مطاردتهم لصيدهم أو في رحلاتهم الطويلة عبر القارة الآسيوية . لهذا عرفوا بأنهم الفرسان وحدهم . فقد ربطوا حياتهم بحياة الخيل لا يتركون ظهورها ، فعليها يأكلون ويشربون ، وعلى رقابها يستندون وينامون . لا ينزلون عنها الا للقاء زوجاتهم وأطفالهم في العربات التي تتبعهم . فهم الى جانب سكنى الخيام المصنوعة من الصوف أو الوبر الغليظ استعملوا العجلات المكسوة التي تعتبر بمثابة خيام متحركة . هذه الخيام ثابتة كانت أم متحركة على عجلات ، وكما عرفها المتقدمون والمتأخرون — عبارة عن عصيات خشب تركب وتشد الى بعض بأشرطة الجلد وتلتقي في أعلاها كالقبة . ويغطى دائرها بالبلد أو الوبر ويترك سقفها المدور مفتوحا لدخول الهواء وخروج الدخان[2] . هذه العربات التي تعيش فيها النساء والأطفال تكون عند المسير قرية متحركة . وعند الوقوف مدينة ثابتة . أما في الحرب فتهيأ في شكل أسوار للدفاع وحفظ المهمات والعتاد اذا لزم الأمر .

(١) Barthold: Histoire de l'Asie Centrale [adapt. fr.]. p. 137 et note 1 .

(٢) عن استعمال العربات عند الترك لقرن السادس الهجري . أنظر Chavannes: Documents sur les Tou kiue. pp. 82-88 وعن عجلات التبشاق انظر ابن بطوطة طبعة مصر ١٢٨٧ ص ١٩٧ ، ترجمة جب ص ١٣٣ (كل عربة لها أربع عجلات تجرها الخيل أو الثيران أو الجمال) ؛ ابن عربشاه ، أخبار تيمور ، ص ٥٩ ؛ عن خيمة الفلون حديثا وهي نفس الخيمة التي وصفها ابن بطوطة عند القبشاق أنظر Huc & Gabet: Travels in Tartary. p. 51 .

ولما كان القوم رعاة فانهم عاشوا على أكل اللحوم بصفة خاصة . فعندما استضاف ملك الترك رسول هشام بن عبد الملك لاحظ الرسول أن الطعام « كثير اللحم قليل الخبز »[1] . كذلك يقول الجاحظ أن أجسامهم ، من دون سائر الناس ، بنيت على تقبل اللحوم[2] ؛ وهم يفضلون لحم الخيل[3] ؛ ولهم طرقهم الخاصة فى قتل ذبائحهم فلا يجعلونها تنزف الدم حتى يظل اللحم رطبا محتفظاً بكل قواه الغذائية[4] . ولقد ظل الداخلون فى الاسلام منهم محتفظين بهذه العادة التى كانت من المآخذ التى أخذت على الافشين قائد المعتصم عند ما اتهم بالزندقة[5] .

أما شرابهم المفضل فهو لبن الفرس المخمر المعروف عندهم بالقمز[6] . وهم معروفون مشهورون بحبهم للطعام والشراب واكثارهم من ذلك منذ القديم : اعترف الصينيون لأهل ما وراء النهر بذلك[7] وشاهده ابن بطوطه فى براري القبشاق[8] ولاحظه المحدثون فى منغوليا[9] .

وهناك أسطورة كابول خان جد جنكيزخان عندما دعاه امبراطور الصين الى مائدته فأكل ما يأكله ستة رجال ، وشرب ما يشربه اثنا عشر رجلا حتى فقد وعيه فأمسك بذقن الامبراطور ثم تنبه وطلب الى الامبراطور

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٧٨ .

(٢) الجاحظ ، رسالته الى الفتح بن خاقان فى مدح الترك ، ص٢٩ أنظر Sauvaget: Hist. arabes. p. 9

(٣) أنظر ابن بطوطه ، ج ١ ص ١٩٨ ، ج ٢ ص ١٢ ، ترجمة حب ، ص ١٩١ .

(٤) والطريقة هى ادخال السكين فى جوف الشاه الى القلب مباشرة . ولذلك فهم يأكلون الميتة والدم المسفوح كما يقول ابن عربشاه (عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، ص ٢٣٧) .

(٥) أنظر ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢١١ ، وما زال المغول يحتفظون بهذه العادة حتى الآن أنظر Huc & Gabet. Travels in Tartary, p. 275

(٦) ابن بطوطة ، ج ٢ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ترجمة جب ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، وأنظر D'Ohsson, Histoire des Mongols. I. p. 15 ; وعن حب المغول الحديثين لشرب القمز أنظر Howorth: History of the Mongols. I. p. 44 ; Grousset, l'Empire des Steppes, p . Huc & Gabet, Travels, p. 333 .

(٧) Chavannes: Documents sur les Tou-kioue, p. 134 .

(٨) أنظر بطوطة ، ج ص ١٩٨ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ترجمة جب ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٩) أنظر Huc & Gabet: Travels in Tartary. pp. 215. 333 .

أن يعاقبه على سوء سلوكه بقطع رقبته . ولكن الامبراطور المنشوري الأصل كان لا ينكر الطرب وتأثر لهذا الأدب الجم فخلع على الزعيم المغولي وكافأه[1]. ثم هناك أيضاً أسطورة ابن كابول وهو قوتلوغ خان صاحب القوة الخارقة : فصوته كالرعد المدوي بين الجبال ، ويداه كقبضتي الدب يستطيع أن يحطم الرجل كما يحطم السهم . وهو يستطيع أن ينام عاريا في الشتاء القارس ويأكل كل يوم شاة ويشرب كميات هائلة من القمز[2] .

ولقد عرف الترك قوتهم واعتزوا بها ونسجوا حولها الأساطير . ومن صفاتهم انهم يجلون الرجل القوي القاسي[3] . والحقيقة أن هؤلاء القوم أهل حرب وفروسية وقتال ، فهم مطبوعون على حب المخاطرة والصراع . اعترف لهم العرب بذلك فقالوا عنهم انهم سباع الانس وعن ملكهم انه ملك السباع وملك الخيل[4] . والتركي على ظهر حصانه لا يعرف أقرب أقربائه ، اذ يعتقد انه سيد كبير . والمثل عندهم يقول : اذا رأيت بيت أبيك يضرب بالسيوف فاضرب بالسيف مع الرفقاء[5] . ولقد دلت الأحداث على أن الترك عندما يكونون أقوياء فهم غزاة وملوك وأباطرة ، وعندما يكونون ضعفاء يصبحون أتباع من يدفع لهم ثمن الخدمة العسكرية : فهم حماة الثغور ومرتزقة الجيوش ، اتخذوا الحرب صناعة وطنية يتكسبون منها[6] .

(١) Howorth: Hist. of the Mongols I. p. 42 ; d'Ohsson: Hist. des Mongols (يقول كاتان I, p. 30 Cahun: Introduction à l'Histoire de l'Asie Centrale. p. 208 أنه رغم تقبل الترك للاسلام الا أنهم كانوا يتدهشون لتدخل المسلمين في الخصوصيات من تحريم بعض أنواع الطعام والشراب) .

(٢) Howorth, History of the Mongols, I, p. 44 ; d'Ohsson: Histoire des Mongols, I. p. 33

(٣) ابن عربشاه ، أخبار تيمور ، ص ٨٧ ، ٩٩ .

(٤) أنظر المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٨٧ ، ٩٩ .

(٥) Cahun: Introduction à l'histoire de l'Asie, p. 60-61 .

(٦) يورد ياقوت في معجم البلدان (ج ٢ ص ٣٧٩) رواية تعبر عن هذا المعنى : فعندما وصل رسول هشام ابن عبد الملك الى ملك الترك يدعوه الى الاسلام خرج مع الملك ويصحبه عشرة فرسان كل منهم يحمل لواء يلوح به فيخرج اليه عشرة آلاف فارس فصاروا مائة الف ، وعندئذ وجه ملك الترك كلامه للسفير فقال : أن هؤلاء ليس فيهم حجام ولا اسكاف ولا خياط فاذا أسلموا والتزموا شروط الاسلام من أين يأكلون ؟

والنساء عندهم يتمتعن بحرية كبيرة ونفوذ وسلطان عظيم ، وهن عاملات مجدات ومحاربات أيضا مثل الرجال[1]. وقد ظل الترك بعد دخولهم فى الاسلام يحتفظون للمرأة بمركزها الممتاز . ورأى ابن بطوطة ذلك فى آسيا الصغرى وفى بلاد القبشاق ، وسجله بشىء من التعجب والاندهاش فيقول أن النساء فى بلاد سلاجقة الروم كالرجال : سافرات يحضرن مجالس الرجال[2] ، وقد تسير المرأة مع زوجها فيحسبه الانسان أحد خدمها[3] . وان السلطان نفسه عندما يصدر أوامره يصدرها باسمه وباسم خواتينه أو زوجاته[4] . هذا ولقد ظهر من نساء الترك من قمن بأدوار خطيرة فى تاريخ الكثير من الدول الاسلامية . وربما كانت أشهرهن فى هذا الميدان تركان خاتون والدة محمد خوارزم مشاه بن تكش .

ولكن رغم تحرر المرأة ورغم نفوذها فان الترك عرفوا ، كما هو الحال بين الشعوب البدوية ، تعدد الزوجات ومارسوه بحرية قبل الاسلام وبعد اسلامهم . ولقد كان الترك يعتبرون النساء ضمن التركة الأبوية يتوارثهن الابن عن أبيه ، والأخ الأصغر عن أخيه الأكبر . فكان على الابن رعاية أرامل والده فهو يتزوجهن عادة ، الا والدته بالطبع . وكذلك الحال عندما يتوفى الأخ الأكبر اذ يتزوج الأخ الأصغر أرامله[5] . وهذا النوع من الزواج هو الذى عرفه العرب قبل الاسلام وسموه « نكاح المقت » بالنسبة للزواج بأرملة الوالد التى يرثها الابن والذى حرمه القرآن فى الآية التى تقول :

(١) ابن عربشاه ، أخبار تيمور ، ص ٢٣٩ .

(٢) ابن بطوطة ، ج ١ ص ١٧١ ، ١٧٨ ، ٢٠٢ ، ترجمة جب ، ص ١٢٣ ، ١٤٧ ، ١٤٧ ، وقارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٧٩ الذى يقول عن الترك الذين لم يسلموا أن بناتهم الأبكار مكشفات الرؤس .

(٣) نفس المصدر ، الترجمة ص ١٤٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٥) Chavannes: Documents sur les Tou-kioue, p. 14 ; d'Ohsson: Hist. des Mongols, I, p. 14 وعن تعدد الزوجات عند المغول حديثا أنظر Huc & Gabet: Travels, p. 237 وعن حرية المرأة وما تقوم به ص ٥٣ ، ٢٨٣ .

« لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها[1] » . وربما كانت الحكمة فى ذلك عند الترك هو المحافظة على ثروة الأسرة من الضياع . اذ المعروف انه كان للمرأة حرية التصرف فى أملاكها وماترثه من زوجها . والى جانب ذلك كانت التقاليد تقضى بأن المرأة من الطبقات الشريفة لا يجوز لها الزواج من رجل أقل منها حسبا[2] .

أما عن ابنائهم فقد اعتادوا أن يسموهم باسماء الحيوانات والجوارح الممتازة التى عرفوا قوتها فقدروها وهابوها . فسموا سنجار بمعنى الصقر ، ولو أن السلطان السلجوقى سنجار سمى نسبة الى مدينة سنجار التى ولد فيها[3] . وسموا طغرل بمعنى الباز ، وأرسلان بمعنى الأسد . وسموا ابناءهم بأسماء المعادن القوية أيضا مثل تيمور أى الحديد ، أو أتيلا (Attila) من أتزل (Atzel) بمعنى الصلب ، أو تيموجين وهو إسم جنكيزخان المشتق من تيموشين بمعنى أحسن الحديد بالمغولية[4] ، وكذلك التون بمعنى الذهب .

وفيما يتعلق بتقاليدهم القانونية فمن الطبيعى ألا يكون لديهم قانون مكتوب كما تقول النصوص الصينية ، انما هو العرف المعمول به بينهم . وهذا القانون العرفى يشابه الى حد كبير القوانين العرفية التى عمل بها غيرهم من البدو مثل البرابرة الجرمان الذين استقروا داخل الامبراطورية الرومانية فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، وذلك من الناحية الجنائية . والتقاليد عندهم تستبشع جريمتى العدوان على النساء والسرقة وتخصص لها عقوبات قاسية . فعقوبة الاعتداء على المرأة المتزوجة هى نفس عقوبة التآمر أو الثورة أو القتل العمد ، وهو الموت . أما الاعتداء على فتاة فعقوبتها الغرامة والزام

(١) أنظر : النويرى ، نهاية الأرب ، طبعة القاهرة ، ١٩٢٤ ، ج ٣ ص ١٢٠ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١ ص ٤٠٢ .

(٢) Cahun : Introduction à l'histoire de l'Asie. p. 46—65 ; L. Halphen : les Barbares. p. 62

(٣) أنظر براون (Browne) ، تاريخ الأدب فى ايران ، الترجمة العربية القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٣٧٩ وهامش ٢ .

(٤) D'Ohsson, : Histoire des Mongols I. p. 35 ; Cahun : Introduction à l'hist. de l'Asie p. 70

المعتدى بزواجها[1] . أما عن السرقة فلقد نظروا اليها — مثلهم مثل بقية الشعوب البدوية — على انها احدى الكبائر وخاصة سرقة الماشية والخيل وهى عماد حياتهم ؛ وتتراوح عقوبتها ما بين الغرامة الكبيرة ومصادرة أبناء السارق وأهله أو استعباده أو قتله اذا ما عجز عن الدفع . لاحظ ذلك ابن بطوطة عند ترك القبشاق اذ وجدهم يتركون مواشيهم وخيلهم ترعى دون حراسة نظرا لقسوة قوانينهم ضد السرقة : فالذى يسرق حصانا يغرم تسعة خيول ، وان لم يكن لديه ما يدفعه يؤخذ ابناؤه بدلا منها ،وان لم يكن لديه أبناء يذبح ذبح الشاة[2]. وما زال المغول فى بلادهم حتى الآن يعاقبون السرقة بشدة مثلها مثل جريمة القتل[3] . أما غير تلك من الجرائم مثل الضرب والجروح فعقوبتها الغرامة .

أما عن عاداتهم الخاصة بمعتقداتهم الدينية القديمة فلا يعرف عنها الشيء الكثير . وكل ما تقوله الروايات الصينية أن خيمة ملك التوكيو كانت تفتح نحو الشرق تبجيلا لتلك الجهة من السماء التى تشرق منها الشمس[4] . وانه فى كل عام يقوم المتيسرون منهم بتقديم الضحايا والقرابين على قبور آبائهم ، وانهم يحجون — فى الأيام العشرة الثانية من الشهر الخامس ، حسب التاريخ الصينى — الى جبل الذهب وهو التون — داغ كما يسمون جبال ألتاى ، حيث تسكن روح السماء التى يسمونها بالتركية بوت — تنجرى (Bout-Tengri)[5] . ويعتبر اهتمامهم بالموتى ، وتقديمهم إياهم وتقديم القرابين لهم ، عادة متأصلة فيهم : فهم يحزنون حزناً شديداً على موتاهم ، لاعتقادهم فى خلود الروح

(١) Cahun: Introduction à l'Hist. de l'Asie p. 57 ; L. Halphen, les Barbares: pp. 61 — 73 .

(٢) ج ١ ص ١٩٧ ، ترجمة جب ، ص ١٤٣ .

(٣) Hue & Gabet: Travels in Tartary p. 333 .

(٤) Cahun, Introduction à l'Hist. de l'Asie p. 58 . Grousset: l'Empire des Steppes, p. 132 .

(٥) Chavannes: Documents sur les Tou-kioue. p. 14 ; Cahun, Introduction à l'Hist. de l'Asie, p. 58 .

وان الحياة الآخرة هى كل شىء[1] . وهم يدورون حول بيت الميت على الخيل سبع مرات ويصرخون صرخات حزينة ، وعندما يقفون أمام الباب يجرحون وجوههم بالسكاكين حتى لينزل الدم مع الدموع [2]. والحصان الذى قام بدور مهم فى حياة الميت كان يلازمه بعد مماته ، يضحون به بأن يذبح أمام القبر وهو مسرج أو بأن يحرق[3]. وكانت الأدوات المنزلية الخاصة بالميت توضع معه فى قبره وكذلك قوسه وسهامه لخدمته فى العالم الآخر[4]. احتفظ المغول بهذه العادات القديمة وشاهدها ابن بطوطة فى الصين عندما مات الخان ؛ اذ دفن معه سلاحه وأطباق الذهب والفضة وأربع جوار وستة من امراء مماليكه يحملون أوانى الشراب ، وبنى باب المقبرة المحفورة تحت الأرض ثم أهيل التراب عليه والجميع فى الداخل . وبعد ذلك أتى بأربعة خيول وعلقت فى خشب فوق المقبرة[5] . وكما قدموا الخيل كقرابين لموتاهم فانهم قدسوها أيضاً : فقد اعتقد الترك الغربيون فى طخارستان فى وجود كهف فى سفح جبل يسميه الصينيون « بو - لى » (Po - li) — جنوب جيحون — حيث يوجد حصان مقدس ؛ فكانوا يسيرون الى هذا الجبل بأفراسهم لترعى . فكانت تلد بعد ذلك مهرات ، تفرز من شدة أصالتها ، بدل العرق دما[6].

(١) وعند المغول الحديثين أنظر Huc & Gabet : Travels p. 39 ورغم أن المسعودى يورد مثل هذا المعنى (مروج الذهب ، ج ١ ص ١١٢) الا أن النويرى فى نهاية الأرب (ج ١ ص ٣٦٧) يخالف ذلك وربما عن غير قصد . اذ يقول أن من أقام ببلاد الترك اعتراه سرور لا يدرى ما سببه ، ثم يتبع ذلك بنتيجة طبيعية فيقول : " أن الميت اذا مات فيها لا يدخل على أهله كبير حزن كما يلحق بغيرهم عند موت محبوب " وهذا غير صحيح كما رأينا .

(٢) أنظر Grousset, l'Empire des Steppes, p. 132 .

(٣) أنظر المسعودى ، (مروج الذهب ، ج ١ ص ١١٢) الذى يقول أنهم (ترك الخزر) يحرقون موتاهم ودوابهم ايضا ؛ D'Ohsson : Hist. des Mongols, I, p. 15 ; Cahun, Introduction à l'hist, p.59

(٤) يقول المسعودى (مروج الذهب ، ج ١ ص ١١٢) أنها تحرق وكذلك الحلى بل وزوجة الميت أيضا . أما اذا ماتت المرأة فلا يحرق زوجها ، أنظر D'Ohsson : Hist. des Mongols I, p. 15

(٥) ج ٢ ص ١٦٥ ترجمة جب ، ص ٢٩٩ .

(٦) Chavannes : Documents sur les Tou-kioue. p. 155

والترك يحبون النظام : فرئيسهم هو أخوهم الأكبر[1] . ولهم طرق فى المؤاخاة والتحالف تشبه أساليب الشعوب البدائية مثل المؤاخاة بشرب الدم مخلوطا باللبن بين المتآخين — الذى عرف العرب مثيله فى الجاهلية — فيصبح الواحد منهم « اندا » (anda) أى أخا لحليفه له عليه ما للأخ على أخيه . وهم لا يريقون دم النبلاء منهم عند ما يحكمون عليهم بالموت بل يكسرون ظهورهم أو يحطمون عظامهم دون جراح . ولقد احتفظوا بهذه العادة حتى بعد دخولهم أرض الاسلام . فعلى عهد المعتصم أمر بقتل أمير تركى فوضع فى كيس وضرب حتى تحطمت عظامه[2]. والخليفة المعتصم نفسه عند ما أمر هولاكو بقتله لف فى البسط وداست عليه الخيل حتى لا يراق دمه[3] . يرجع ذلك الى أنهم كانوا يقدسون الأرواح ؛ وكانوا يعتقدون أن روح الرجل تعيش فى دمه[4] . ويقضى العرف عندهم بأن الابن الاصغر هو الذى يرث الأرض الأصلية ، أى موطن أبيه وأن الأبناء الكبار يرثون العقار والقطعان[5] .

وكما حدث عند الصينيين القدماء عبد الترك ، الشمس والقمر والجبال والأنهار والعناصر[6] .

والعناصر التى عبدوها خمسة هى : الأرض والخشب والمعدن والنار والماء . وفى القرن السادس الميلادى كان التوكيو الغربيون يقدسون الهواء والماء حسب ما عرفه عنهم البيزنطيون[7] . وعندما دخل المغول بلاد الاسلام كانوا يقدسون المياه الجارية حتى أنهم منعوا

(١) والمثل لذلك فى الاسلام هو انتخاب سبكتكين الذى قبل الرئاسة على شرط أن يطيعه الجميع . فمن عصى قتل . أنظر نظام الملك ، سياسة نامة ، ترجمة Scheffer ، ص ٥٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٨١ .

(٣) ابن الفوطى ، الحوادث الجامعة ، طبعة بغداد ١٣٥١ ، ص ٣٢٧ (ولم يهرق دمه بل جعل فى غرارة ورفس حتى مات) .

(٤) Vladimirtsov, The life of Chingis-khan, p. 62

(٥) Howorth : History of the Mongols, I, p. 62 ;

(٦) أنظر المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٨٧ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٧٩ ، ابن بطوطه ، ترجمة جب ، ص ٢٩٣ ، d'Ohsson: Hist. des Mongols. I, p. 16 .

(٧) Grousset: l'Empire des Steppes, p. 129

مسلمين من الوضوء فى الجداول وجعلوا لذلك عقوبات قاسية . ولاشك أن العنصر الذى كان له التقدير السامى من بين هذه العناصر هو المعدن القوى الذى يصنع منه السلاح وآلات الحرب وهو الحديد . وفى كثير من أساطير الانساب يرجع الترك نسبهم الى هذا المعدن أو الى المشتغلين به . فهناك أسطورة الحداد الذى أخرجهم من سجنهم فى جبال الحديد (ألتاى) فى القرن السادس ، بعد فرارهم أمام الصينيين الذين فتكوا بهم بمعرفة بان — تشاو (Pan - Chao) فى نهاية القرن الأول الميلادى ، وذلك بعد أن صهر لهم ممرا وسط هذه الجبال[1] والمعتقد أن كثيرا من اسمائهم الوطنية القديمة مثل تيمور واتيلا وتيموجين ، التى لها معنى الحديد ، ذات أصل دينى ؛ وكذلك لقب « ليو » (Liau) الذى اتخذه الخطا[2] .

ولقد تحولت عبادة العناصر المتعددة هذه الى عبادة ثنائية اقتصرت على السماء والأرض . فأصبحوا لايقدسون إلا السماء المرتفعة أو الارض العالية مثل الجبال . من هذه العبادة الثنائية اشتقت عبادة السماء التى يسمونها « تنجرى » (Tengri)[3] . وعبادة السماء هى المعروفة بالسمنية (Chamanisme)[4] . فى مخيلة العامة أن السماء والارض تمتلئان بالأرواح والجان والشياطين مما دعاهم أن يتوجهوا بعبادتهم نحو السماء ، بفضل وساطة كاهن يسمونه سامان . هذا الكاهن يمكنه عن طريق التأمل الشديد ، السيطرة على الأرواح الشريرة واكتساب محبة الأرواح الخيرة . هكذا يمكن الاتصال بالسماء التى قدروا ألوهيتها واعتقدوا أنها خلقت العالم . ولقد تمسك الترك باسم السماء وهو «تنجرى» حتى أن التركى العثمانى ، كما لاحظ كاهان ، يقول ويكتب بلغة غريبة «تنجرى» بدلا من «الله» .

(١) Cahun : Introduction, p. 57, 58.

(٢) Howorth, Hist. of the Mongols, I, p. 2

(٣) D'Ohsson: Hist. des Mongols, I, p. 16

(٤) أنظر المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٨٢ .

فهو يدعو قائلا «تنجرى فردى» (Tengri verdi) بدلا من «الله فردى» أى أعط يا الله . وبهذا المعنى نمى محمد خوارزشاه ابنه جلال الدين «مانجو فردى» (منكبرتى) أى عطية الله فى لهجة أخرى . كما أن والد المؤرخ المصرى أبو المحاسن المعروف بابن تغرى بردى ، ليس اسمه الا تحريف لكلمتى « تنجرى فردى » نفسها[1] . وعبادة السماء عند الترك تشبه مذهب الصابئة عند الفرس حسب ما يورده المسعودى[2]. وفعلا وجد بينهم عبدة الشمس والقمر و الكواكب الى جانب عبدة العناصر .

والى جانب ذلك اعتقد الترك والمغول أنهم حفدة الذئب الأغبر فهو جدهم الأسطورى . ولقد اتخذ الترك الغربيون الذئب شعارا لهم فكانوا يضعون فى قمة سارية رايتهم رأس ذئب من ذهب[3] ، كما أن أتباع الملك كانوا يسمون باسم « فو — لى » وهى كلمة بورى (buri) أى الذئب . ولقد اعتقد المغول أيضا أنهم حفدة «ألان جوا» (Alan Goa) التى حملت بطريقة اعجازية عن طريق شعاع من النور ، وعلى ذلك اعتقدوا فى نمو أصلهم النورانى[4] .

كانت السمنية أو عبادة السماء هى السائدة بين قبائل الترك فى سهوب آسيا حتى وقت متأخر ، فهى ديانتهم الوطنية التى تناسب طبيعتهم البدوية وحبهم للحرب والقتال . فالانسان لايخشى عقوبة فى العالم الآخر جزاء الاعتداء على حياة آخر ، بل على العكس من ذلك ، كان يعتقد أن مصيره يتحسن فى العالم الآخر بالنسبة لعدد الأرواح التى يزهقها[5] . ولذلك كان من عادة ترك القرن السادس الميلادى أن يضعوا على قبر الميت أحجاراً

(١) أنظر D'Ohsson: Histoire des Mongols, I. p. LXIV

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٣٨ .

(٣) Grousset, l'Empire des Steppes, p. 132

(٤) Cahun, Introduction à l'hist. de l'Asie, pp. 85—87

(٥) Barthold: Hist. de l'Asie Centrale, adaptation fr. p. 11

بعدد من قتلهم من الرجال أثناء حياته ، واعتبروا ذلك تشريفا له[1] ولكن نتج عن اتصالهم بالايرانيين واحتكاكهم بالهند أن اعتقد بعضهم فى الزرادشتية أو المانوية ، كما اعتقدت جماعات منهم فى البوذية[2]. والمانوية التى اعتنقها الاويجور فى أواخر القرن السابع الميلادى — على عكس البوذية — لاتحرم قتل الإنسان فقط بل تمنع ذبح الحيوانات نفسها ، وتستنكر أكل لحومها[3].

ويرى كاهان أن أنسب الأديان الى الترك هى البوذية ، وذلك لأن هذا الدين الفلسفى لايتطلب كثيرا من الحماسة الدينية أوالطقوس والشعائر[4]. وذلك أن التركى أو المغولى لم يكن فى يوم ما دينا ، حتى أن المثل يقول : « التركمانى زائف الايمان » . فالحماسة الدينية التى عرفها العرب والايرانيون والصقالبة لم يعرفها الترك . وهو لذلك يقول ان الأتراك غير موفقين فى الاسلام توفيقا تاما حتى أن كتاباتهم فى الاسلام كانت اسلامية شكلا ولكنها صينية بوذية روحا وفكرا . الا أن هذا اذا كان صحيحا الى حد ما فيما يتعلق بترك القراخانية فى كاشغر وبلاساغون فهو ليس كذلك بالنسبة لعامة الترك المسلمين . ويفسر كاهان تمسكهم بالمذهب السنى وعدم قبولهم المذاهب المنشقة ، بأنهم لايعرفون الجدل والنقاش فى الدين ، وان ذلك يرجع الى روحهم العسكرية ، روح الطاعة والنظام . وهكذا كانت الجيوش تدخل فى الاسلام مع قوادها دون تمعن فكر أو روية ، ولهذا لم يفكروا فى غير مذهبهم الأول وهو المذهب السنى[5].

(١) Grousset: l'Empire des Steppes. p. 58

(٢) أنظر المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ص ١١٢ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٣٧٩

(٣) Barthold: Hist. de l'Asie Centrale. adap. fr. p. 38

(٤) والحقيقة أن البوذية فى أول أمرها لم تعرف فكرة الله ولا فكرة المعروف والثواب والجريمة والعقاب . انما كان هدفها الوصول الى حالة الأمن والسلام الروحى وهو البوذا التى تشبه فكرة الحب عند الصوفية .

(٥) Cahun. Introduction à l'Hist de l'Asie p. 67

ولكن اذا كان هذا صحيحا الى حد كبير إلا أنه لم يمنع الترك من التحمس الشديد للاسلام والعمل الدائب على نشره وتوسيع حدوده . والمثال الرائع لذلك هو سبكتكين ثم ابنه محمود الغزنوى الكبير اللذان عرفا — ولاسيما محمود — بالحماسة للاسلام ونشره بمثابرة واصرار فى الهند . أما عن تمسك الترك بالمذهب السنى ، وهذا أمر غريب حقا نظرا لاتصالهم المباشر بايران الشيعية ، فيمكن أن ينسب أيضا الى النزاع التقليدى بين الايرانيين والطورانيين الذى اتخذ شكلا مذهبيا فى داخل الاسلام .

يتضح من كل ما تقدم وجود تشابه بين جماعات البدو التى سكنت سهوب آسيا الوسطى وأوربا الشرقية والتى أحاطت بايران حيث أستقر الاسلام . ويظهر هذا التشابه فى المميزات الجنسية واللغات التى تتكلمها هذه الجماعات كما يبين فى التقاليد والعادات التى مارستها منذ القديم والتى بقيت آثارها حتى العصر الحديث ؛ فلم يقض عليها الاسلام رغم غيرته الشديدة وحرصه الدائم على نقاء معتقداته حتى نسيت أغلب المجتمعات الاسلامية ماضيها التاريخى ودمجته فى حاضرها الاسلامى .

والى جانب ذلك أثبت الأثريون أيضا أن هناك تشابها فى الانتاج الفنى الذى أخرجه سكان هذه المناطق بأسمائهم المختلفة ، والذى ينتشر من فنلندا وسهوب روسيا الجنوبية ويستمر شرقا عبر آسيا الوسطى حتى منطقة ثنية النهر الأصفر فى الصين . هذا الفن الذى يتمثل فى النقش على الحجر أو المعدن يستمد أصوله من صميم الحياة البدوية : فهو فن حيوانى بمعنى أن وحداته الزخرفية هى الحيوان الذى يعيش فى السهوب ، وأن مادته التى طبق عليها هى الأدوات الخاصة بتزيين هذه الحيوانات أو الأدوات التى يستخدمها الفرسان[1]

كل هذا يدعو الى القول بأن الجماعات التاريخية التى عرفت باسم الهيونج — نو أو الخوان — جوان أو الهياطلة أو التبغاتش وأخيرا الترك أو ثم التتار أو المغول ، ان هى الا اتحادات سياسية كانت تتجمع وتتحد ثم تتناثر

(١) أنظر الفصل الخاص بذلك : Grousset L'Empire des Steppes, p. 31-410

وتنتشر حسب مقتضى الظروف والأحوال . وان هذه المسميات ليس لها معنى جنسي خاص . ومثل هذا أيضا يمكن أن يقال عن الجماعات التي ينقسم اليها الترك أنفسهم : من القبشاق والغز والأويجور والقارلوق وترك الخزر وغيرها .

هذه المجتمعات البدوية كانت تحيا حياة بدائية ولذلك لم تعرف الكتابة إلا في وقت متأخر ، وعندما اصطنعتها اتخذت حروف غيرها من الشعوب التي احتكت بها . ولقد ترتب على ذلك أن هذه الجماعات لم تدون تواريخها . أما المعلومات التي وصلتنا عنهم فقد أتت عن طريق الشعوب المتحضرة التي كانت لها بهم علاقات تراوحت ما بين العنف في أغلب الأحيان والسلم في بعض الأحيان ، مثل الصين والرومان ثم الفرس والعرب .

والمعلومات التي أمدنا بها الكتاب العرب عن المجتمعات التركية تتفق مع الكتابات الصينية واللاتينية وتضيف إليها أشياء جديدة . فهي معلومات أصيلة لايشك فيها على ما فيها من غرابة في بعض الأحيان وهي مفيدة لدراسة العلاقات بين الترك والاسلام ولتفهم خصائص ونظم المجتمعات والدول التي كونتها تلك العناصر كما تفسر الدور الخطير الذي قامت به في تاريخ الاسلام وكيف تحكمت في مصيره لقرون طويلة .